تحت القلعة*

كان موضوع محاضرتي في آخر السنة الماضية (باب الجابية[1]) وقد أشرفنا من ذلك الباب على مشهدين من مشاهد دمشق التاريخية . الدالة على عظمة العرب في القرن الاول للهجرة : فكان مشهداً يثير الحمية والاباء . ويدعو الى التباهي بمآثر الأجداد والآباء .

ونحن في محاضرتنا في أول هذه السنة نريد أن نطوف معكم دمشق ثانية ونستعرض طائفة من مشاهدها . لكن لا من (باب الجابية) بل نطوّفُ طويلاً في أرجاء دمشق حتى ننتهي الى (تحت القلعة) فنشهد فيه مشهداً عجبا : مشهداً يؤلم الحس . ويزعج النفس . ويولي الترح . على عكس مشهد (باب الجابية) الذي أبهجَ القلب . وأنعمَ البال . وهاج الفرح .

وهكذا تاريخنا أيها السادة ! قد جمع بين الحارّ والفارّ . والضارّ والسارّ . ومن حوادثه مايورث الفخار . ومنها مايجلب العار والشنار .

لا أريد أن أستقصيَ مشاهد دمشق التاريخية بجذافيرها وانما أريد أن أصف لكم بعض مشاهدها الاجتماعية والاخلاقية في خلال القرون الوسطى الاسلامية . وقد أقارن بعض ما أشاهده فيها في ذلك العهد ببعض مانحن عليه اليوم .

ثم إننا لانذهب وحدنا في هذا التطواف بل نسير مرافقين لبعض السيّاح الذين نزلوا دمشق في ذلك العهد : فرأوا بأم أعينهم أحوالها . وبلوا أخبارها . وعاشروا سكانها . وزاروا أشرافها وأعيانها .

(*) احدى محاضرات الأستاذ للمغربي في دار المجمع العلمي (٥ كانون أول سنة ١٩٣٠).

(١) راجع ص ٢٢٨ من هذا المجلد .

وبذلك نكون من أمرنا على هدى . ومن (محاكاتنا) التاريخية على حق وسداد .

وقبل الشروع في سياحتنا هذه نذكر مسألة لها علاقة كبرى بما ستراه ونسمعه في تطوافنا :

ذلك أن سلفنا الصالح الذين عاشوا في العصر الأول هم قدوتنا . وعملهم حجةٌ لنا . أما آباؤنا الذين جاؤوا من بعدهم فليس كل ما كانوا عليه مما يصلح حجة للعمل . وها هو القرآن الكريم يعيب على المشركين قولهم ويرد عليهم حجتهم مذ كانوا يقولون (إنا وجدنا آباءنا) فكل ماتراه في سياحتنا هذه من أعمال هؤلاء الآباء وعاداتهم وأطوارهم لنا الحق في أن نعرضه على أصول الشريعة فما وجدناه مطابقاً لها حكمنا بسداده وصحته . ومالم نجده كذلك لانبالي أن نزيفه ونعلن بطلانه .

* * *

خرجنا من منازلنا في صبيحة أحد أيام نيسان من سنة (٥٨٠) للهجرة (الموافق ١١٨٤ الميلاد) . فكان أول مانطق به دليلنا أن قال لنا — وقد أشرفنا من سفح قاسيون على دمشق — انظروا : هذه هي دمشق : جنة المشرق . ومطلع حسنه الموثق المُشرق . قد تحلت بأزاهير الرياحين . وتجلت في حلل سندسية من خضرة البساتين . ظلٌ ظليل ، وماء سلسبيل . ورياضٌ يحيي النفوس نسيمها العليل . قد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك الصم الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب — إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها . وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » اهـ .

ولما سمعنا هذه الاساليب الشعرية المسجعة في وصف دمشق استعفينا السائح منها . ورجونا منه أن لايكررها على أسماعنا . وقلنا له لسنا من الشعر وليس الشعر منا . وانما نحن قوم نريد أن نطلع على أحوال دمشق الاجتماعية والعمرانية . فدعنا بالله من أسجاعك . ومانتكلفه من إغرابك وإبداعك .

فقال حسن : هلموا بنا الى جامع بني أمية . فدخلناه وقت الضحوة الكبرى . ولما صرنا في داخله رأينا من فخامته وسعة صحنه . وزخرف جدرانه ما أدهشنا . فأراد السائح أن يزيدنا دهشة واعجاباً فقال (ان العنكبوت لاتنسج به ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف) فلم نطل معه الجدل في هذا الزعم وانما أشرنا الى طيور الحمام التي كانت تطير في جنبات الجامع كاننا نقول له : وما الفرق بين الخطاف والحمام ، في حكم العقول والافهام ؟ ولو كان الامر على العكس ودخله الخطاف لكان أنفع للجامع وأنظف . لأن الخطاف يختطف من هواء الجامع الذباب والبعوض . فينجو المصلون من أذاها . ويرتاحون من طنينها وشدة بلواها .

فلم يرد علينا السائح وانما انتقل بنا في الحديث الى بناء الجامع وقال إن الخليفة الوليد جلب لبنائه اثني عشر ألف صانع من بلاد الروم فنقشوا جدرانه بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء . وخلطت بها أنواع الاصبغة التي تمثل أشجاراً وأغصاناً مفرغة في قوالب من بدائع الصنعة الموثقة التي يعجز الواصفون عن وصفها . حقاً إن منظر أروقة الجامع وجدرانها والحنايا والأقواس القائمة على عمدانها المطلية بالذهب والملونة بالخضرة واللازورد — وقد وقعت عليها أشعة شمس الضحى الوهاجة . ثم انعكس عنها البريق والبصيص الى أبصارنا — كل ذلك كان له في نفوسنا روعة وجلال . وقد انتزعنا من عالم الحقيقة الى عالم الخيال .

ولم يوقظنا من ذهولنا إلا ما قاله السائح : إن رجال بني أمية يختلفون في ولوعهم واميال نفوسهم : فالوليد اختصاصي في تشييد المباني ، كما كان معاوية إخصائياً في الدهاء والكيد وابنه يزيد اخصائياً في قسوة القلب وعلى العكس ابنه معاوية الثاني فانه اختصاصي في رقة القلب ، وعمر بن عبد العزيز في الزهد والعدل . ومسلمة بن عبد الملك في الرزانة والعقل . وسليمان في الشره والأكل . حتى قالوا : انه هو الذي اخترع الكنافة . ثم مات بالتخمة . والوليد بن يزيد اختصاصي في الخلاعة والفجور . وآخرهم

مروان بن محمد اختصاصي في الشجاعة والصبر على القتال . كما يصبر الحمار تحت عبء الاحمال والاثقال . لذلك لقبوه بمروان الحمار . أما عبد الرحمن الداخل الى الأندلس والملقب بصقر قريش فقد كان اختصاصياً في الطموح وبعد الهمة وابنه الحكم بن عبد الرحمن اختصاصي في جمع الكتب واصطناع العلماء والأدباء .

ثم قال السائح : وربما لم يقم في الدول الاسلامية الاخرى اختصاصيون بلغوا من الكثرة مثل مابلغه رجال أمية . وقد يذكر اختصاص المأمون بحب العلم في العباسيين . واختصاص الحاكم بأمر الله بدعوى الالوهية في الفاطميين .

وأشار السائح الى القبة الكبرى التي تعلو حرم الجامع فقال : هذه هي قبة الرصاص وتسمى أيضاً قبة النسر لأنها بما أحاط بها من الحنايا والقباب والأركان تمثل لنا النسر برأسه وجؤجؤه وجناحيه .

* * *

وبرحنا الجامع وعدنا اليه في المساء . وإذا صحنه أصبح مجتمع أهل دمشق . ومُتنفرّجهم ومتنزّههم : فتراهم فيه ذاهبين آيبين . من شرق الى غرب : من باب جيرون الى باب البريد ، فمنهم من يتحدث الى صاحبه ، ومنهم من يقرأ في كتابه . ومنهم من يذكر الله على سبحته التي يمسكها بيديه من وراء ظهره . ولا يزالون على هذه الحال . إلى انقضاء صلاة العشاء . وكان الناس يسمّون هؤلاء الذين يخطرون في صحن الجامع على هذه الصورة (حرّاثين) : لشبههم بالحراثين الذين يروحون ويجيئون بسكة الحراثة ، وقد بقي الناس على هذه العادة الى عهد قريب . وربما كان في أشياخنا المسنين من أدركها وحرث مع الحراثين .

ودخلنا الحرم فاذا المحراب يتقد ذهباً . وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة به . وقد حفت به عمدٌ مفتولاتٌ فتل الأساور . كأنها

مخروطة خرطاً . وبعضها أحمر كأنه مرجان : فحائط القبلة . والمحراب المذهب . واشراق شبابيكه المذهبة ذات الزجاج الملون ، واتصال أشعة الشمس المنبعثة منها ، وانعكاس الاشعة على حائط القبلة وانحلال أضوائها الى ألوان زاهية مختلفة — كل ذلك أخذ أبصارنا واستهوى قلوبنا حسناً وجمالاً .

ومشينا من الحرم إلى باب جيرون (وهو باب النوفرة اليوم) وخرجنا منه الى دهليزه المنتهي بباب آخر عظيم الارتفاع . وعلى يمينه غرفة دخلناها فاذا فيها طيقان من النحاس الأصفر . ولهذه الطيقان أبواب صغار على عدد ساعات النهار . وقد دبرت تدبيراً هندسياً حيلياً للدلالة على أوقات النهار ، إذ أنه نصب تحت أول باب من هذه الأبواب الصغار تمثال طير من طيور الباز وهو من نحاس أصفر ، وتحت آخر الأبواب باز آخر مثله . والبازان واقفان على طاستين من نحاس مثقوبتين ، وفي منقار كل باز بندقة مدورة من نحاس : فاذا انقضت ساعة من النهار مد البازان أعناقها بالبندقتين الى الطاستين وقذفاهما في الطاستين بتدبير عجيب . فيسمع لهما رنين ، وينغلق الباب وينتقل العمل إلى باب آخر . وهكذا تنغلق الأبواب كلها وتنقضي ساعات النهار فيعود الحال كما بدأ .

هذه دلالتها في النهار ، أما دلالتها في الليل فلها تدبير آخر وذلك أنه انعطف فوق الطيقان قوس فيه اثنا عشرة دائرة من نحاس مخرم في كل دائرة زجاجة خلفها مصباح يدور به الماء على مقدار الساعة ، فاذا انقضت الساعة أضاءت الزجاجة بنور المصباح وفاض الشعاع على الدائرة التي أمامها فلاحت في الظلام محمرة . ثم ينتقل ضوء المصباح الى الدائرة التي بعدها فتضيء محمرة . وهكذا حتى تضيء الدوائر كلها بعدد ساعات الليل . ولمعرفة الساعة هذه قيّمٌ يتفقدها ويعيد فتح الأبواب ويرجع بالبندقة الى موضعها .

وكانت تسمى هذه الساعة (المنجابة) وهي محرفة عن كلمة (منكاب)

و (منكاب) محرّفة عن (بنكام) وبنكام كلمة يونانية معناها آلة من الرمل تقدّر بها الساعات النجومية والذي يلفت النظر : أن يوجد في الجامع الأموي في ذلك التاريخ (سنة ٥٨٠ للهجرة) تمثالان من نحاس أصفر على صورة بازيين . بشكلها الطبيعي أو أكبر .

* * *

واذا نزلنا في التاريخ نحو مئة وخمسين سنة نسمع الناس يسمون باب جيرون (باب الساعات) ونجد المنجانة تغيرت الى وضع آخر : نجدها غرفة لها طاق كبير فيه طيقان صغار على هيأة أبواب بعدد ساعات النهار وقد صبغ باطن تلك الأبواب بالخضرة ، وظاهرها بالصفرة ، فاذا انقضت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً ، والظاهر الأصفر باطناً . ولها قيّمٌ يقلب الأبواب بيده عند كل ساعة .

وأينَ البازيان اللذان عهدناهما منذ مئة وخمسين سنة ؟ ؟ الجواب على هذا أن يقال : لعل فقهاء دمشق في القرن الثامن للهجرة تغيرت روحيتهم عن روحية القرن السادس : فكأنهم استفظعوا وجود تماثيل طيور في الجامع فاخرجوهما منه وكسروهما تكسيراً . بعد أن أوسعوهما سباً وتحقيرا .

ويسألنا سائل فيقول : أيُّ فقهاء القرون الاسلامية خير ؟ فقهاء القرن السادس وقت أن كان البازيان يخدمان المصلين بالدلالة على أوقات الصلاة ؟؟ أو فقهاء القرن الثامن وقت أن حكم على البازيين بالتكسير والتدمير والتعيير والتحقير ؟

* * *

ومَن هذا الامام العظيم الذي يمشي في صحن الجامع سنة (٥٠٠) للهجرة وعليه المهابة والوقار ، وقد حف به تلاميذه ومريدوه . آتياً من غرفته في أعلا المنارة الشرقية ومازال سائراً حتى خرج من باب جيرون (باب النوفرة) ودخل غرفة (المنجانة) أي حيث يقوم البازيان بعملها ويخدمان المصلين بامانة ؟

هو الامام (أبو حامد الغزالي) نزيل دمشق في ذلك العهد ومؤلف كتاب (الأحياء) الذي قال فيه بعض الواعظين :

(أرى الناس أمواتاً ومن لي بالأحيا كمن يروي أسرار الفتوحات والاحيا)
(وما الناس الا ابن دينار راوياً عن الذهبي يروي عن ابن أبي الدنيا)

ثم عدنا الى حرم الجامع فاذا شيخ من شيوخ العلم مستند الى سارية من سواري المسجد ، واقعة بين المقصورتين وقد تحلق الناس حوله لاستماع درسه . فقيل لنا إن لهذه السارية وقفاً معلوماً يأخذ ريعه من يلقي درسه مستنداً اليها . وان هذا الشيخ الذي ترونه فقيه أندلسي من أهل اشبيلية يعرف بالمرادي .

* * *

وكان لأهل الخير في ذلك الزمن عناية خاصة بحبس الأوقاف على نشر القرآن ، فتجد في الجامع ولاسيما بعد صلاة الصبح أو العصر مئات من الناس يتلون القرآن وهم بين معلم ومتعلم وتالي . حتى اذا فرغ الرجال ، جاء دور الصبيان فالتفوا حول القرّاء يلقنونهم القرآن .

وهكذا كان المسلمون في القرون الاولى . يستثمرون أوقافهم ، وينفقونها في سبيل مصالحهم العامة . فلو عرفوا اليوم كيف يستثمرونها وينمّون ريعها وغلاتها ثم ينفقونها في سبيل تعليم أولاد فقرائهم وفي السبل الخيرية الاخرى كما تفعل بقية الطوائف في أوقافها — لكان ذلك من أمثل الطرق في انعاش الحياة الاجتماعية في الأمة الاسلامية .

وزرنا في دمشق (الحضرة) وهو ميتم كميتم هذه الأيام : يأوي اليه الأيتام . وينفق عليهم وعلى معلميهم من ريع عقارات موقوفة عليهم . ولكن الأيتام ما كانوا في (الحضرة) وقت أن زرناها . وانما خرجوا الى مشاهدة موكب الحج القادم من الحجاز فاسرعنا نحن أيضاً الى مشاهدته : فاذا مهرجان عظيم وموسم مبارك . والناس يتلقون الحجاج فيصافحونهم ويتمسحون بهم تبركاً وتيمناً . ويستقبلونهم بصنوف العطايا والهدايا . وقد حدثنا

بعض الدماشقة : أن المرأة الدمشقية تتلقى الحاج أحياناً وتناوله الرغيف فيعض عليه فتخطفه منه وتعطيه عوضه دراهم ثم تأكله تبركاً به .

واذا نزل الغريب في بلد اسلامي في ذلك العهد يدبرون له وظيفة دينية يقوم بها . ويعيش من راتبها . حتى يملّ . فينتقل الى بلد آخر : يصادف فيه ماصادفه في الأول . وقد يصعد الغريب الى جبل لبنان فيعيش في قراه ناعم البال . وقد يقيم في مغاراته مع الزهاد المسلمين المنقطعين فيها للعبادة يومئذ .

وما كان النصارى أقل عناية بهؤلاء الغرباء الوافدين عليهم . فكانوا يجلبون لهم القوت ويحسنون اليهم . ويقولون : هؤلاء قوم انقطعوا الى الله فتجب مواساتهم .

وهكذا كان الاخلاص في الحب متبادلاً بين السوريين على اختلاف الطوائف والملل . حتى خلف من بعدهم خلف تمسكوا بالقول وتركوا العمل .

* * *

ثم ضاق صدرنا من التجوال داخل دمشق فرأينا أن نخرج الى ضواحيها للنزهة والتفرّج فأشاروا علينا أن نذهب الى الضاحية الغربية حيث المرج الشهير . وكان الوقت أصيلاً . والنسيم يهبّ عليلا . فرأينا منظره من أبدع المناظر التي تسر النفس وتلذ الحس (ميدانان . كأنهما بساطان من خز لشدة خضرتها . والنهر يشقها . وغابة عظيمة من شجر الحور متصلة بالميدانين . ولا جمال للعين كجمالها . ورأينا أبناء السلطان صلاح الدين يتسابقون هناك ويترامون . ويتلاعبون بالكرة والصولجان . وقالوا لنا : ان هؤلاء الفتيان يخرجون الى هذا المتنزه للتّعيب والمسابقة كل يوم كما أن السلطان صلاح الدين نفسه يخرج أحياناً للنزهة واللعب بالصوالجة . وتقام بين يديه سباقات للخيل . وسمعنا من الناس — بمناسبة سباق الخيل الذي يقيمه صلاح الدين في ميدان المرجة — ثناءً على ذلك السلطان وبعد همته ، وماله من الآثار المحمودة (فهو لا يأوي لراحته ، ولا يخلد الى دعته ، ولا يزال

سرج جواده مجلسه) وسمعنا بعض فقهاء دمشق الذين يترددون على صلاح الدين يقولون إن للسلطان ثلاث مناقب :

(١) الحلم ، ومن قوله في ذلك (أما أنا فلأن أخطيء في العفو أحبّ الليّ من أن أصيب في العقوبة .

(٢) الكرم ، ومن قوله في ذلك (والله لو وهبت الدنيا لمن قصدني لما كنت أستكثرها له . ولو استفرغت له جميع خزائني لما كان مساوياً لما أراقه من ماء وجهه في طلبه مني) .

(٣) تحكيم الشرع لا الهوى . ومن آثاره في ذلك ان أحد ممالكه المقربين شكا اليه تاجر جمال باعه جملاً فيه عيب . فأجابه السلطان : ماعسى أن أصنع لك ؟ والمسلمين قاض يحكم بينهم . والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة . وأوامره ونواهيه ممتثلة . وانما أنا عبد الشرع وشحنته (أي أنه بمثابة شرطي ينفذ أمر الشرع) فالحق يقضي لك أو عليك .

* * *

وبينا كنا نسير في السوق الذي يسمونه السوق الكبير وهو الممتد من باب الجابية الى باب شرقي (وكان ذلك في غرة جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ) — صادفنا جنازة لبعض ذوي الثروة من أهل دمشق . فرأينا لها ترتيباً عجيباً : ذلك أنهم يرتبون أمامها قرّاء يقرأون القرآن بأصوات شجية . وتلاحين مبكية تكاد تنخلع لها النفوس شجواً وحناناً يرفعون أصواتهم بها . فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان . فاذا وصلت الجنازة الى باب الجامع سكت هؤلاء القراء . إلا أن يكون الميت من أئمة الجامع أو من سدنته فان القراء إذ ذاك لايقطعون قراءتهم عند باب الجامع . وانما يبقون على رفع أصواتهم حتى يصلوا الى موضع الصلاة على الجنازة .

رأينا هذا من أحوال جنازتهم . وقلنا نقي علينا أن نحضر موضع العزاء ونرى رسمهم فيه . فاسرعنا في الوقت المعين الى الجامع الأموي . وأخذ

الناس يتوافدون فرادى الى الجانب الغربي من صحن الجامع إزاء باب البريد وبعد أن أخذوا مجالسهم صفّت أمامهم ربعات من القرآن وبدأوا يقرؤون .

وكان يدور في هذا الجمع رجال هم نقباء الجنائز وظيفتهم ترتيب الاجتماع وتهيئة الربعات وحفظ النظام وكنا من وقت الى آخر نسمع أصواتهم ترتفع ، فاصغينا اليهم واذا هم يعلنون قدوم الواصلين الى العزاء من محتشمي البلدة وأعيانها . وكانوا يسمونهم بالقابهم الهائلة التي اعتادوا أن يضيفوها الى كل واحد منهم . مضافاً كل لقب الى كلمة (الدين) وما أكثر هذه الألقاب وأوسع مجالها عندهم : فقد سمعنا نقيباً من هؤلاء النقباء يعلن قدوم أحد الأعيان بقوله : جاء (صدر الدين) ثم سمعنا نقيباً آخر ينادي (شمس الدين) وثالثاً يعلن (بدر الدين) ثم ماشئت من نجم الدين وزين الدين وبهاء الدين وجمال الدين ومجد الدين وفخر الدين وشرف الدين ومعين الدين ومحب الدين وزكي الدين ونجيب الدين ـ الى مالانهاية له من هذه التراكيب الموضوعة والألقاب المرفوعة .

وكنا نسمع أحياناً أوصافاً زائدة على الألقاب . وذلك فيما اذا كان القادم من الفقهاء : فان النقباء يذكرونه بلقبه (صدر الدين) مثلاً ثم يصفونه بقولهم (سيد العلماء) أو (جمال الائمة) أو (حجة الاسلام) أو (فخر الشريعة) أو (شرف الملة) أو (مفتي الفريقين) الى مالانهاية له من هذه الأوصاف الحالية .

وقد لاحظنا أن بعض من يعلنون لقبه ويرفعون أصواتهم بوصفه ومدحه كان يمشي ساحباً أذياله من الكبر . ثانياً عطفه من العجب .

حتى اذا استكمل القوم أمرهم . وفرغوا من قراءة القرآن قام وعاظهم واحداً إثر واحد : بحسب درجاتهم في المعرفة . فوعظ وذكر . ونبّه على خدع الدنيا وحذّر ، وأنشد في المنى ماحضره من الأشعار ، ثم ختم وعظه بتعزية أهل الميت والدعاء لهم ولفقيدهم .

ثم يقعد فيقوم آخر على شكله وطريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا .

وهذا الوعظ والتذكير في هذا الاجتماع على الصورة المذكورة ربما كان نافعاً لمن يحضر من سواد الناس وعامتهم .

وللناس في تلك القرون الوسطى عادات وأطوار أخرى لا تسلم من النقد وهي إذا قورنت بما عليه الناس اليوم ، وجد بين الحالتين فرق يذكر .

وكانوا في ذلك العهد يتعاطون الحال تعاطياً ، والجد عندهم عنقاء مُغرب .

وكان إذا لقي أحدهم صاحبه خاطبه بقوله : جاء المملوك أو الخادم . ثم يومىء بعضهم الى بعض بالسلام : فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك : فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً .

ومن عجيب حالهم أن صغيرهم وكبيرهم يمشون وأيديهم الى خلف . قابضين بالواحدة على الأخرى . واذا أراد أن يسلم أحدهم على الآخر ركع للسلام ويداه وراء ظهره ، والمحتشم منهم يسحب ذيله على الارض شبراً . وقد اتخذوا هذه الحالات بينهم سُنناً . ورأوها أمراً حسناً ، وهم يعتقدون أن ذلك يجعلهم من ذوي الخصوصية . واذا اعترض عليهم معترض اعتذروا بأنهم يجدون في صنيعهم هذا نشاطاً في الاعضاء . وراحة من الاعياء .

* * *

هذا ما ينتقد به عليهم . أما مايمدحون به فهو ما اعتادوه من آداب المصافحة : فتراهم اذا فرغوا من صلاة الجماعة ــ ولاسيما صلاتي الصبح والعصر ــ أقبلوا على الامام فصافحوه ثم يأخذ كل واحد منهم في مصافحة من عن يمينه أو يساره . ودعا بعضهم لبعض بالمغفرة ، وصلاح الحال . فيتفرقون عن مجلس مغفرة وحب واخلاص وصفاء نية . وفي ذلك من تجديد المودة . وتأكيد الاخوة . وتوثيق الروابط مافيه .

* * *

ثم زرنا دمشق مع سائح آخر بعد نحو مئة وخمسين سنة (أي في سنة

٧٢٥ للهجرة) وكان وصولنا اليها بعد عصر يوم السبت . فرأينا الأشغال معطلة ، والحوانيت مقفلة ، وقيل لنا أن أهل دمشق لا يعملون أيام السبوت إنما هم يخرجون الى المتنزهات ، وشطوط الانهار ودوحات الاشجار ، بين البساتين الناضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل ثم يعودون الى بيوتهم ، وهكذا كل يوم سبت .

وقد أشار الى عادتهم هذه بعض من وفد عليهم من علماء الاندلس وهو (ابو الحسن الغرناطي) فقال :

أما دمشق فجنـــة ينسى بها الوطن الغريب
لله أيـــام السبو ت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى إلا محبـــاً أو حبيب
في موطن غنّى الحما م به على رقص القضيب
وغدت أزاهر روضه تختال في مرح وطيب

وإذا أردنا أن نعلل ما كان من عادة الدماشقة في تعطيل أيام السبوت فلا نجد لذلك سبباً سوى عطلة اليهود : فان عطلة اليهود وخروجهم للمنازه مــع نسائهم أغرى المسلمين بتقليدهم ، والنسج على منوالهم ، كما أصبح المسلمون اليوم يقلدون النصارى في عطلة أيام الآحاد في المدن التي يكثر فيها سواد النصارى كبيروت ، بل وفي بلاد أخرى لا يكثر فيها النصارى كالقاهرة : حتى إن أرباب المحلات التجارية والمعامل الصناعية الكبرى ، التي يخدم الصناع النصارى فيها — كانوا همّوا في القاهرة أن يجعلوا العطلة يوم الأحد رسمية . ويمنعوا صناعهم المسلمين من العطلة أيام الجمع ، لئلا تقع عطلتان في الاسبوع الواحد ، ولكن الصناع المسلمين أبوا إلا عطلة يوم الجمعة ، وحصل في المسألة خلاف طويل عريض بين الكتاب والمفكرين واحتدمت نار الجدال بينهم في تفضيل أحد الرأيين . وآخر الأمر بقوا على عطلة يوم الجمعة مشاركين للحكومة في ذلك خشية أن يتعطلوا يوم الأحد فتتعطل الحكومة معهم . وتشتغل يوم الجمعة !!!

والحاصل أن عطلة المسلمين أيام السبوت والآحاد ناشئ عن عطلة مواطنيهم في هذين اليومين . وقد أخبرنا بعض فضلاء تونس أن مسلميها اليوم يتعطلون يوم السبت مجاراة لليهود الذين على قلتهم أصبحت الحركة الصناعية والتجارية في أيديهم .

ولا يخفى أن عطلة الشعب في يوم من أيام الاسبوع والراحة فيه من عناء الأعمال مفيد في الصحة ونشاط النفس وفي توثيق الروابط بين الاصدقاء والعائلات بسبب الزيارات والاجتماعات العائلية . بل هو مفيد أيضاً من الوجهة المالية والاقتصادية : فان رجوع التجار والصناع والمتسببين الى أشغالهم بعد الراحة يكون بأوفر رغبة ونشاط مما لم يتعطلوا . فهذا النشاط والاندفاع في الاعمال يجلب الارباح والمكاسب عليهم .

وقد شوهد أثر ذلك بيّناً في شعب اليهود ووفرة أمواله .

على أن عطلة الدماشقة يوم السبت وخروجهم للنزهة والبساتين قديماً مازال له بعض الأثر في هذه الايام أيضاً .

* * *

وكان في دمشق في ذلك العهد (أي سنة ٧٢٥) هـ أئمة وخطباء وعلماء وقضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، وكان قاضي قضاة الحنفية يوم زيارتنا لها (عماد الدين الحوراني) وهو رجل شديد السطوة عظيم الهيبة وكان يتحاكم اليه النساء وأزواجهن فلا يضيع لامرأة حق ولا يلحق بها عنت ولا جور : كل ذلك بفضل تيقظ هذا القاضي ونزاهته وصرامته . والأزواج القساة لا يبالون أن يظلموا هؤلاء النساء المسكينات ويأكلوا حقوقهن ولا يخشون الله فيهن : فوجود مثل هذا القاضي ضمانة لهن ومن أكبر نعم الله عليهن .

وقد كان الرجل اذا سمع أنه يقاد في الخصومة الى ذلك القاضي أنصف من نفسه . وأعطى خصمه حقه قبل أن يقوده اليه .

وتبسم بعض الخصوم يوماً من كلام مطلقته أمام بعض القضاة المتشددين في وجوب المحافظة على السمت والوقار فصرخ القاضي فيه صرخة قطعت نياط قلبه ، ثم وبخه بمثل قوله : ويحك أتضحك وقاضيك بين الجنة والنار؟ أتضحك وقد تجلّى على مجلسنا المنتقم الجبار . ثم حمل الرجل الى منزله ، ولم يلبث إلا أياماً حتى قضى نحبه .

* * *

وكانت دمشق يوم زرناها تميد سفينتها بجبال العلم وأساطين المعرفة : أمثال ابن الشحنة وشهاب الدين المقدسي ومجد الدين بن المعلّى وشمس الدين بن تمام وشمس الدين بن سالم الهكاري . والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم الحراني . والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم المقدسي .

وقد سمعنا يوم قدومنا الى دمشق لغطاً ودندنة : فذكروا لنا أن هناك نزاعاً قام قائمه بين العلمـــاء بشأن الشيخ تقي الدين (ابن تيمية) فقيه الحنابلة وكبير الشام في تلك الأيام وكان يتكلم في العلوم بأسلوب عجيب ومهارة فائقة وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم . وكان له مجالس وعظ يحضرها الجم الغفير من الاهالي . وإن رجلاً كابن تيمية رزق الشهرة الواسعة والمنزلة الرفيعة في نفوس الناس لايسلم بالطبع من شانيء يشنؤه وحاسد يحسده من أهل بلده ، فنقلوا عن لسانه كلمات زعموا أنها مخالفة للشرع ورفعوا أمره الى (الملك الناصر) في القاهرة فأمر الملك بإشخاصه اليه حتى اذا وصل الى مصر عقد له مجلس مناظرة وكان كلما عرض عليه خصومه مسألة أجابهم بقوله (لا اله الا الله) (يعني ومن قالها كان مسلماً ولايجوز الحكم على المسلم بالكفر) وما كان يزيد على ذلك شيئاً خشية أن يدخل معهم في ميدان الجدال : لأن المناظرة في المسائل الدقيقة تؤدي بالضرورة الى الاختلاف في الآراء : فاذا ارتأى الشيخ ابن تيمية رأياً مخالفاً لرأيهم اعتبروا رأيه مخالفاً للشرع مع أنه في الحقيقة مخالف

لآراء مناظريه لا للشرع . ولكن أعداءه لايريدون أن يفهموا هذا . ومن ثمّ رأى ابن تيمية ان الأسلم له أن يلجأ الى الله ويتحصن بكلمة : (لا إله إلا الله) .

ولما لم يجبهم على أسئلتهم أمر الملك الناصر بسجنه في القاهرة وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه (البحر المحيط) في نحو أربعين مجلداً . ثم شفعت به أمّه لدى الملك فأطلقه لها وعادت به الى دمشق . حتى إذا وصلها عاد خصومه الى الوشاية به الى الملك فأمر بسجنه في قلعة دمشق .

ويروى أنه لما أدخل السجن — وكان معه أكبر تلامذته (ابن قيم الجوزية) — أغلق الباب على نفسه بعنف وتلا قوله تعالى : (فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) ثم قال مخاطباً تلميذه المذكور : وماذا يستطيع أن يفعل بي أعدائي وأنا جنتي خلوتي ونفي سياحتي . وقتلي شهادتي . وبستاني في صدري) وقد عنى بالبستان الذي في صدره حقائق العلم والعرفان أو برد اليقين والثقة والاتكال على الله أو أنه أراد لذة المناجاة للحق سبحانه وتعالى .

* * *

وبقي ابن تيمية في سجن قلعة دمشق حتى توفاه الله يوم الاثنين الواقع في عشرين ذي الحجة من سنة ٧٢٨ هـ فكانت له جنازة حافلة ، وصفها المؤرخون وأطنبوا حتى قال صاحب (تاريخ شذرات الذهب) إنهم خمّنوا الرجال الذين خرجوا في جنازته بمائتي الف والنساء بخمسة عشر الفاً .

ومشينا في جنازته الى سوق الخيل حيث صلى عليه أخوه (زين الدين) عبد الرحمن . ودفنوه في مقابر الصوفية ، وتسمى اليوم البرامكة الى جنب أخيه عبد الله . وقد حفظ قبره من الاندراس والحمد لله .

* * *

وكان دخولنا الى سوق الخيل في جنازة ابن تيمية أول مرة رأينا

فيها تلك السوق فشاهدنا في هذه السوق وفي الأماكن التي حواليها حركة عمران عجيبة وسألنا عن هذا المكان فقيل لنا إنه يسمى (تحت القلعة) وإنه سُرّة دمشق وأشهر موقع من مواقعها . فعدنا الى زيارته المرة بعد المرة . وكنا كلما زرناه رأينا شيئاً جديداً ومشهداً من مشاهد العمران عجيباً .

* * *

فكما أن تلك البقعة في عصرنا الحاضر (أي في القرن العشرين) تشتمل على عدة أسواق وأماكن كسوق علي باشا وسوق الخيل وسوق التبن وخان البطيخ وخان الباشا والحايرية والخيمية وبين الحواصل وطريق دوما الى العمارة الذي يعدون فيه اليوم قضبان حديد الترام . كذلك كانت هذه المواقع كلها تسمى (تحت القلعة) في القرون الوسطى الاسلامية : فكان (تحت القلعة) يشتمل على دار البطيخ وسوق الخيل أوالدواب وسوق التبن ومقابر العونية ودار بهادر الى غير ذلك من الخطط والأحياز والقصور .

ويظهر من كلام المؤرخين في تحديد موقع (تحت القلعة) أنه كان يطلق على المكان الفسيح الواقع بين مصلبة العمارة شرقاً ، والمرجة غرباً . والقلعة والنهر جنوباً وسوق ساروجا شمالا . وقد بالغوا في وصف قدم هذا المكان وعمرانه حتى قال (ياقوت) في (معجم البلدان) إن شيوخ دمشق يزعمون أن دار شداد بن عاد واقعة في سوق التبن يفتح بابها شمالاً الى الطريق . وانه كانت تزرع لشداد الرياحين والورود وغير ذلك فوق الأعمدة بين القنطرتين : قنطرة دار البطيخ وقنطرة سوق التبن) اه .

وقد بقي موقع (تحت القلعة) حافظاً شهرته التاريخية هذه مدة خمسة أو ستة قرون .

فأول ماعرفنا من تاريخه الصحيح القرن الرابع للهجرة : فان (دار البطيخ) كانت موجودة في ذلك القرن وكان الوأواء الدمشقي الشاعر المشهور (المتوفى سنة ٣٩٠ للهجرة) سمساراً في تلك الدار (أي دار البطيخ) ثم علق بالشعر ونظمه فاحسن وأجاد . ونال منه أقصى المراد .

وبقي (تحت القلعة) عامراً منذ ذلك العهد أي القرن الرابع وربما قبله أيضا إلى القرن التاسع وربما بعده أيضاً ، فقد روى المؤرخون أن قاضي مصر أبا الحسن ابن سودون (المتوفى سنة ٨٦٨ ه) والذي قالوا عنه انه أول من أحدث[1](خيال الظل) — وهي اللعبة المسماة في عصرنا (قره كوز) كان له ولد طائش ، ترك مصر وجاء الى دمشق فبلغ أباه خبره وقالوا له انه يتعاطى التمسخر والهزل والمجون مع الأوباش تحت قلعة دمشق فحملته الموجدة والغضب على ابنه أن جاء دمشق وقصد تحت القلعة وعرف مكان ابنه فوجده في حلقة مع نفر من الأوباش يلهون ويلعبون ويتماجنون فلحظ الولد أن أباه القاضي واقف مع المتفرجين ينظر اليه فابتدر ينشد بنغمة شجية وصوت حزين :

قد كان يرجو والدي ... بأن أكون قاضي البلد
ماتمّ إلا ما يريد ... فليعتبر من لو ولد

فنكص القاضي راجعاً ولسان حاله يقول :

كم حسرة لي في الحشا ... من ولد قد انتشا
كنت أرجى رشده ... فما نشا كما نشا

وأحسن من وصف (تحت القلعة) أبو البقاء البدري الذي كان عائشاً في أواخر القرن التاسع للهجرة فقد وصف في كتابه الذي سماه (نزهة الأنام في وصف الشام) موقع (تحت القلعة) وصفاً دقيقاً فقال : (تحت القلعة) مرتع القريب ، ومنهل الغريب ، وهو ساحة سماوية ، تحفها الدور ، وتعلوها القصور . قد احتوت على كل مايرومه الانسان ، وتشتهيه

(١) والصحيح ان خيال الظل كان موجوداً قبله فقد ذكروا ان القاضي الفاضل شهده في دار بعض أولاد السلطان صلاح الدين وأنشد فيه :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن كان في علم الحقيقة راق
شخوص وأشباح تمر وتنقضي ... وتمضي سريعاً والمحرك باق

الشفة واللسان . فيها دار البطيخ حيث تباع جميع الفواكه ، وهناك العين المشهورة ببرودة مائها ، وعذوبته وخفته ، وفيها سوق القماش : منه ماياع مقروعاً . ومنه ماياع مخيطاً ، جانب للرجال ، وجانب للنساء : سوق الفراء والعبي ، سوق السقطيين والنحاسين والسكاكينيّين والقربيّين ، سوق الخيل والغنم ، وسوق القشّاشين ، وسوق المحاريين والنجارين والخرّاطين والنقليّين . وهناك دار الخضر ، وبها سوق المناخليين والزجّاجين أيضاً .

ثم قال : اذا نظرت ساحة تحت القلعة فلا تكاد ترى أرضها لكثرة مابها من المتعيشين والوظائفية ويتخللهم أرباب الحلقات والفالاتية والمضحكون . وأصحاب الملاعيب والحكواتية والمسايرون ؛ وكل مايتلذذ به السمع والبصر وتشتهيه النفس صباحاً مساءً . قال ولكن الناس في المساء يكونون أكثر اجتماعاً ويستمرون الى طلوع الثلثين . ومعنى طلوع الثلثين ؟ كان يوضع في أعلا أسوار القلعة ثلاثة طبول متفرقة : ففي الثلث الأول من الليل تُضربُ الطبول ضربة واحدة ، وفي الثلث الثاني ضربتين وفي الثلث الاخير يطلع المؤذن على منارة العروس ويعلق لهم قنديل الاشارة ، فيضرب كل طبل إذ ذاك ثلاث ضربات . وهكذا تهدأ حركة الليل ويتفرق الناس الى الجوامع للصلاة او الى بيوتهم للنوم .

هذا ماقاله المؤرخ البدري ، أما قوله « وهناك العين المشهورة ببرودة مائها وعذوبته » فقد أراد بها العين التي تسمى اليوم (عين علي) .

ولانعلم كيف كانت حالتها في القديم أما اليوم فينزل اليها بضع درجات وقد اتخذوا لها انبوباً وحوضاً للاستسقاء وموقعها في سوق المحايرية أمام جامع صغير يسمى (جامع الدلبة) وقد جدد عمارة هذا الجامع بعض أهل الخير من عهد قريب ، ويفصل بين العين والجامع طريق ، وكان على تلك العين شجرة دلب (١) عظيمة جداً وبها سمي الجامع الذي أمامها (جامع

(١) الدلب شجر معروف وكان النصارى يتخذون منه النواقيس واذا ارادوا أن يقولوا ان فلاناً نصراني قالوا (هو من أهل الدربة بمعالجة الدلبة) أي خبير باصطناع النواقيس منها .

الدلبة) وكان الناس يأوون إلى أصل تلك الدلبة ذات الظل الظليل للاستراحة والفرار من حر الهجير ، وقد بقيت هذه الدلبة التاريخية الى زمن الحرب العامة وقت أن كان غالب بك الزالق رئيساً للبلدية فقطعها توسعة للطريق ، وما زال الكثيرون يذكرون جذعها الضخم الذي يبلغ محيطه بضمة أذرع وقد تآكّل جوفه وتفتّت من كرّ السنين حتى أصبح فارغاً مقوراً . وكان يتخذ كمخزن تودع فيه الاخشاب والسحاجير .

وقول البدري « إنه يوجد تحت القلعة (دار البطيخ) حيث تباع جميع الفواكه » لعل هذه الدار هي المسماة اليوم (خان البطيخ) على مقربة من خان الزيت « مكتب الصنايع » وكانت الاسواق التي تباع فيها الخضر والفواكه تسمى « دور البقل » ونسميها اليوم « سوق الخضر » وباللغة الافرنجية « الهال » وقد اشتهر اسم الهال أخيراً بسبب احداث الحكومة له بناية خاصة .

أما في دمشق وبغداد فقد كان فيها أسواق لبيع الفواكه ولما كان البطيخ أشهر تلك الفواكه ، وأكبرها حجماً ، وأعظمها ركاماً ، وأشرقها لوناً غلّبوا اسمه البطيخ على سائر الفواكه : فسموا الدار التي تباع فيها الفواكه على اختلاف أنواعها (دار البطيخ) وهذا كما يقولون اليوم (بقالية) للمخزن الذي تباع فيه مواد غذائية مختلفة ويكون في جملتها البقل ، ثم خففوا (دار البطيخ) فقالوا : (دار بطيخ) من دون تعريف ، وقد قال ابن لنكك الشاعر يهجو كلاب بن حمزة :

(أنت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على اسم حمزة وصفاً غير تشميخ)
(كدار بطيخ تحوي كل فاكهة وما اسمها الدهر الا دار بطيخ)

وفي موشح المرزباني أن محمد بن يحيى قال : كنت عند عبيد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في (أبي صقر) التي أولها (أجنت لك الوجد أغصان وكثبان) فقال عبيد الله هذه القصيدة (دار البطيخ) يعني لاشتمالها على ذكر الاثمار والازهار . فضحك الجماعة فقال اقرأوا تشبيبها

وانظروا . هي كما قلت . قال محمد وقد ملّح عبيد الله وظرّف . وهذه القصيدة أكثر من مائتي بيت مرّ له فيها إحسان كثير . ومن نسيبها مما يدل على صحة قول عبيد الله :

(أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان)
(وفوق ذينك أعناب مهدّلة سودٌ لهن من الظلماء ألوان)
(وتحت هاتيك عناب يلوح به أطرافهن قلوب القوم قِنوان)
(غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان)
(ونرجسٌ بات ساري الطل يضربه وأقحوان منير النور ريان)
(أليفن من كل شيء طيبٍ حسنٍ فهن فاكهة شتى وريحان)

وفي عيون الأخبار لابن قتيبة مجلد ١ ص ٢٥٢ أن الفضيل كان يقول (إذا أبغض الله عبداً جعل رزقه في الصياح) ثم فسر ذلك بقوله : (أما سمعتم الى أهل دار البطيخ والملاحين ودويّهم) ولا جرم أن يكون الدلالون أشهر من كان رزقهم في الصياح كما قال الفضيل .

* * *

وكانت الحكومات الاسلامية تعين لدور البقل والخضر والفواكه عمالاً يستوفون من الباعة والتجار الرسوم والمكوس مما يسمونه (حقوق السلطان) ونسميه اليوم (أموال أميرية) (دخولية أو جمرك) .

والتزام مال الدخولية كانوا يسمونه قديماً (شدّ) فيقولون مثلاً إن الحكومة ولت فلان (شد دار البطيخ) أو (دار الفاكهة) .

بل يظهر أن الشد قديماً كان له معنى اداري أعم : فهو بمعنى التولية والتعيين في أي عمل حكومي أو رئاسة مصلحة أو ديوان : من ذلك (شدّ العاير) ، (وشد الشرابخانه) ، (وشد الدواوين) . وقد فسر القلقشندي في كتابه صبح الاعشى (شد الدواوين بانها وظيفة يتولى صاحبها

تحصيل الاموال الأميرية وانفاقها ، فهو بمثابة الدفتردار أو المحاسبجي في الحكومة العثمانية .

وممن تولى شد الدواوين في دمشق في عهد الملوك الشراكسة الأمير علم الدين سنجر « المتوفى سنة ٦٩٩ » وهو أمير جليل جمع بين الشجاعة والعلم والصلاح وعمل الخير ، حتى أن المنصور حسام الدين لاجين ملك مصر وكل اليه أمر عمارة « جامع طولون » وتنظيم وقفية له . فعمره ورتب له أوقافاً من جملتها « وقف الديوك » وهي أموال مقررة تنفق على ديوك توضع في جانب من سطح « جامع طولون » وذكر في كتاب الوقفية الغرض من هذه الديوك فقال : ان هذه الديوك تُعينُ الموقّتين ، وتوقظ المؤذنين الخ. فلما قرأوا كتاب الوقف على السلطان (لاجين) كان يقول نعم نعم حتى انتهوا الى ذكر « الديوك » فقال لا لا أبطلوا وقفيتها لئلا يضحك علينا الناس .

* * *

موقع تحت القلعة وحركة العمران فيه — حسبما وصف ذلك لنا المؤرخ البدري — جعل اهتمام الشرطة ورجال الأمن به عظيماً ، وذلك لكثرة ما يأوي اليه من الغرباء الأشرار والمتلصصين وأهل اللهو والخلاعة وكان موقعه في دمشق كموقع الأزبكية في مصر وساحة البرج في بيروت كذلك كان حال موقع « تحت القلعة » في دمشق في القرون الوسطى .

وان الملك العادل المدفون في جوارنا أو تتأدب فنقول الذي نحن في جواره ، كان يقاسي عناءً شديداً في السهر والمراقبة لكل مايجري « تحت القلعة » من حوادث ووقائع وشؤون وشجون .

فكنا نرى — ونحن نطوف في جنبات « تحت القلعة » من آثار عنايته واهتمامه بحفظ الأمن — ما يفوق الوصف . وقد وفق الله هذا الملك الى تطهير دمشق من المكوس التي كانت تؤخذ على المسكرات وتجبى من الخواطيء والمخانيث . وكانت هذه المكوس تبلغ أحياناً مئة الف دينار . ووفق الله

الملك العادل أيضاً الى تحريم معاطاة الخمور وادخالها الى دمشق بتاتاً وشدد في ذلك على رئيس شرطته ، ومع كل هذا لم ينقطع ادخال الخمور وتهريبها كما تقول اليوم ، وقد حكى لنا رئيس شرطة العادل واسمه (المبارز ابراهيم ابن موسى) وهو بمنزلة مدير الأمن في أيامنا قال :

ركبت يوماً ومعي رجالي وخرجت من باب الفرج ، فاذا رجل قد علق في رقبته طبلاً وهو يمشي به متثاقلاً متمايلاً فقلت لرجالي أمسكوه ، فأتوا به فشققت الطبل واذا فيه زق خمر فأرقته ، وضربت الرجل . فقلنا للمبارز : ومن أين علمت أن في الطبل زق خمر ؟ قال : رأيت الرجل يمشي ورجلاه تلتويان على غير انتظام . فعلمت أنه يحمل شيئاً ثقيلاً .

* * *

وكان الملك العادل مغتبطاً جداً برئيس شرطته هذا ويسميه معتمَده ، فيقول : « نادوا المعتمد ، قولوا للمعتمد » فاشتهر رئيس شرطته بلقب المعتمد . لكن العادل غضب عليه يوماً غضبا شديداً وذلك أن الملك احتفل بقصره في عرس ودعا اليه مغنية مشهورة يومئذ بدمشق فتأخرت المغنية عن الحضور في الوقت المعين ثم جاءت فوبخها الملك قائلاً :

— أين كنتِ ؟

— ماقدرت ياخوند[1] أجيء حتى وفيت ما عليّ للضامن

— وأي ضامن ؟

— ضامن القيان .

(يعني أن القيان والمغنيات كان لهن ملتزمٌ يأخذ منهن مكساً لأنهن أرباب صنعة ونسميه اليوم تمتماً) فلما سمع العادل من المغنية خبر الضامن قامت قيامته وطلب معتمده (المبارز ابراهيم) فوبخه على وضع هذه الضمانة على المغنيات ، وقال له : « والله لئن عاد بلغني مثل هذا عنك لأفعلن بك ولأصنعن » .

(١) خوند كلمة فارسية وكانوا يستعملونها في ذلك العهد بمنزلة قولنا اليوم ايها الامير .

لاجرم أن المعتمد نفّذ أمر الملك وألغى ضمانة القيان . ولكن لا نعلم كيف أن مثل العادل يرضى بوضع هذه الضمانة وقد قالوا في وصفه إنه كان ديناً ورعاً عفيفاً حسن السياسة لطيفاً بالرعية : حتى انه كان يستر على مرتكبي المعاصي من الرجال والنساء ويستدرجهم بعفوه ونصحه الى التوبة والاقلاع عن الذنوب .

قالوا : وكان لداره (أي دار ابراهيم) بابان : باب جهري كبير يقف عليه الحرس والجنود وباب سري صغير ينفذ الى زقاق آخر من أزقة المدينة ، فاذا أمسك رجاله امرأة خاطئة مثلاً أدخلوها عليه وهي على حالتها ، فيأمرهم بالانصراف ، ثم يأخذ في تقرير المرأة حتى يعرف نسبها وأهلها . فاذا وجدها قابلة للنصح وبخها فيقول مثلاً : يا بنيتي : أنت من بيت معروف وأهلك أصحابي ، وسلوكك هذا يحط من أقدارهم ويجري عليهم الأسافل فيهينونهم . يابنتي انظري كم واحد من أهلك يلحقه العار بسببك فيضطر أن يمشي وهو مطأطئ الرأس . خشية أن تقع عينه على أحد من الناس . يابنتي : أتبيعين شرفك وشرف آبائك واخوتك بلذة وقتية تزول ويبقى عارها لاحقاً بك وبأهلك الى الأبد ؟ يابنتي كذا . يابنتي كذا ولا يزال يقول هذا ونحوه حتى تسيل دموع المسكينة على خديها من فرط الكدر وخوف العار وتشعر في نفسها كأنها ابنته حقيقة فتترامى على قدميه طالبة منه العفو والصفح ، وتؤكد له ندمها وتوبتها وتعطيه عهداً وميثاقاً على أنها لا تعود فحينئذ يفتح لها باب السر الى الزقاق ومنه الى دار أبيها آمنة مطمئنة . ويبقى يراقبها حتى يستوثق من صحة توبتها ويحمد الله على أن وفقه الى انتشالها من العار والشنار والنار وإن رآها نقضت توبتها ، وعادت الى سوء عملها كان له معها شأن آخر .

ومن أعجب ما وقع في زمن هذا المعتمد الصالح : أنه كان في دمشق رجل شرير فاجر ، والى جانب بيته بيت تسكنه امرأة وزوجها ولها صبي صغير في اذنه قرط من ذهب . فلمعت عين الخبيث على قرط الذهب فخنق الغلام

ودفنه وأخذ القرط ، ولما فقدت أم الغلام صغيرها اتهمت جارها المذكور ورفعت أمره الى المعتمد ابراهيم فعذبه عذاباً شديداً فلم يعترف وفي آخر الأمر أطلقه . لكن الأم المسكينة بقيت تتحرق على وحيدها وهي تعتقد أن قاتله هو جارها جار السوء لما تعلم من خبثه وفجوره .

فخطر لها — الوصول الى كشف السر — خاطر غريب قلما يخطر إلا لأصحاب الارادة القوية من الناس : ذلك انها حملت زوجها على طلاقها فطلقها وبعد مضي عدتها تزوجت بجارها الملعون . وأقامت معه مدة طويلة على صفاء ووئام وحسن عشرة حتى اذا ازداد انسه بها وركونه اليها قالت له في احدى ليالي البسط والانشراح : ها قد مات زوجي الذي طلقني ولحق بابنه المفقود لاردهما الله وأنت لا تزال تخفي عني حقيقة الواقع ، فبالله عليك إلا ما قلت لي ، أما أنت الذي قتلته ؟ وما زالت تطايبه وتخضع له بالقول حتى أخبرها بأنه هو الذي قتله وأخذ حلق الذهب من أذنه .

— كيف قتلته ؟

— خنقته .

— وأين دفنته ؟

— في جبّانة باب الصغير .

— لا أصدق . قم أرنيه .

فنهضا معاً الى جبانة باب الصغير وأراها قبره . قالت احفر لأرى ، فحفر عن الولد ، فلما رأته انقلبت سحنتها وهاج الغضب في نفسها وأصبحت كالبوة المفترسة ، وانقضت كالصاعقة على الوحش القاسي فطعنته بخنجر كان معها أعدته لهذا الغرض فبعجت بطنه ومزقت أحشاءه ودفعته في حفرة ابنها وهالت عليها التراب . ورجعت توّاً الى دار رئيس شرطة الملك العادل (المعتمد ابراهيم) وقصت عليه ماجرى لها من أوله الى آخره .

فتردد في صحة قولها ونهض للحال مع بعض رجاله وأخذها بصحبته

الى مقبرة باب الصغير ونبش القبر فرأى المتهم الكبير الشرير مضطجعاً مع البريء الشهيد الصغير ، فتعجب جدّ العجب مما رآه وهاله دهاء هذه المرأة وجرأتها . فالتفت اليها قائلاً « أحسنت والله ، وينبغي لنا كلنا أن نشرب على اسمك كاس الفتوة »

وان تعجبتم أيها السادة من خبر طم الجثتين ودفنها في الحفرة فاني محدثكم بخبر جرى في دمشق فيه طم ودفن عجيبين أيضاً :

ذلك أن شيخاً صالحاً من شيوخ دمشق (واسمه الشيخ شمس الدين محمد بن الكمال ، شيخ المدرسة الأشرفية بجبل قاسيون (مات سنة ٦٨٨ للهجرة) . كان هذا الشيخ يوماً يحفر في داره بالصالحية وتعاونه زوجته فعثر على جرّة ملأى بالذهب ، فما كان منه إلا أن أقنع زوجته بلزوم طم الحفرة على الجرة وابقائها حيث هي مدفونة في التراب وقال لزوجته : « هذا المال فتنة . وله مستحقون لانعرفهم » فوافقته زوجته على طم الجرة ودفنها حتى يأتي المستحقون فيأخذوها .

كيف رأيتم أيها السادة أليس في طم الحفرتين درس لنا يزيدنا بصيرة في معرفة الحالة الاجتماعية التي كان عليها أجدادنا ويجعلنا نلمس جانباً من جوانب نفسياتهم وحالاتهم الادبية والاخلاقية ؟

* * *

نرجع الى خبر جارنا الملك العادل مع معتمده ابراهيم :

رحل العادل الى مصر وجعل من هناك يكتب الى معتمده بلزوم مراقبة ابنه وليّ عهده (المعظّم) وكان المعظم يومئذ في ريعان الشباب وتضارة العمر . فكان بتأثير رفاقه الشبان عليه — يمارس أحياناً بعض أسرار الليل مما لا يرضي الله ولا أباه الملك العادل . فكان المعتمد يشدد المراقبة عليه حسب وصية أبيه الملك ويتبعه بالجواسيس أو رجال التحري كما تقول اليوم حتى ضايقوه فاغتاظ ولي العهد منهم ومن رئيسهم المعتمد . وصبر حتى صار

ملكا . فكان أول شيء فعله أن اعتقل ابراهيم في قلعة دمشق . وأراد أن يبطش به بسبب من الأسباب ، فدقق حساباته فلم يجد أنه دخل على ذمته ولا ذمة أولاده وحاشيته مقدار حبةٍ من خردل .

ثم مات هذا المعتمد رحمه الله في ٢١ ذي القعدة سنة ٦٢٣ هـ عن ثمانين سنة من العمر ودفن في تربته في جبل قاسيون بعد أن تقلد رئاسة الشرطة نحو خمسين سنة .

فنعم الرجل الصالح كان هذا المعتمد . وحبذا إيمانه وأخلاقه ورزقنا الله مثله .

غير أنهم عابوه في شيء واحد ، ذلك أنه كان اذا سجن أحداً نسيه في الحبس فتطول مدة سجنه .

ويظهر أنه ما كان في زمنهم (مفتشية) سجون فيبحث عن حالة المسجونين وينظر في جرائمهم والمدة التي حكم عليهم بها . وقالوا : ان الله جازاه على نسيانه المسجونين بأن نسيه الملك المعظم حينما سجنه في القلعة نحو خمس سنين .

هذه هي مناقب جارنا الملك العادل . وآثار عدله وسهره على مملكته وراحة رعيته .

وإذ قد ذكرنا لكم إن حقوق الجوار وثيقة بيننا وبين هذا الملك فيحسن أن نلم بذكر شيء من مبتدأ خبر هذا الجوار . وانه لم يقتصر على بنائه هذه المدرسة العادلية ودفنه فيها ، بل ان الأمر أقدم من ذلك : فان هذه البناية الواقعة أمام المدرسة العادلية (والتي تسمى اليوم المدرسة الظاهرية) كانت هي مع الحمام الذي بجانبها قبل ذلك داراً اسمها دار العقبي(١) ، وكانت من دور دمشق وقصورها المشهورة في التاريخ وقد ملكها نجم الدين أيوب

(١) جاء في تاريخ (النجوم الزاهرة) في حوادث سنة ٣٧٨ هـ مايلي : وفي هذه السنة توفي أحمد بن الحسين بن أحمد بن علي بن محمد العلوي الدمشقي ويعرف بالعقيقي وهو صاحب الدار المشهورة في دمشق وكان من وجوه الأشراف جواداً ممدحاً مات بدمشق في جمادى الأولى اهـ

ابن شادي والد السلطانين صلاح الدين والعادل ، وما يدرينا أن السلطانين المذكورين وُلدا أو نشآ فيها .

وبعد وفاتها بقيت تسكن هذه الدار أختها الست (ربيعة خاتون بنت أيوب) حتى ماتت في شعبان سنة ٦٤٣ هـ عن عمر يزيد على الثمانين . وكانت ربيعة آخر من بقي من أولاد أبيها أيوب وأدركت من محارمها وأولادهم وأولاد أولادهم أكثر من خمسين رجلاً كلهم ملوك :

زوجها ملك اربل ، أولاد ابنها ملوك الموصل ، ابن أخيها ملك خلاط ، ابن أخيها الآخر ملك الجزيرة الفراتية ، أولاد اختها ملوك الشام ، اخوتها (صلاح الدين والعادل وأولادهم) ملوك مصر والحجاز واليمن .

هؤلاء الملوك الخمسون كلهم محارم لربيعة خاتون التي كانت تسكن في جوارنا في دار العقيقي حيث المدرسة الظاهرية .

فكم لهذه الدار من شرف باذخ ومنزلة عالية في تاريخ دمشق ، وأين قبر هذه الملكة حتى نزوره وندعو الله أن يجعل حظها في دار الآخرة مثل حظها في دار الدنيا ؟

ان قبرها في مدرستها التي بنتها في سفح الجانب الشرقي من جبل قاسيون وتسمى مدرستها المدرسة الصاحبة (أو الصاحبية) .

وأول من درّس في مدرستها هذه الشيخ (ناصح الدين الحنبلي) وكان لهذا الشيخ بنت اسمها (أمة اللطيف) وكانت شيخة عالمة فاضلة لها تصانيف ، وقد قضت معظم حياتها في خدمة الملكة (ربيعة خاتون) وكانت ربيعة خاتون تحب الشيخة . وقد نالت الشيخة بسبب هذه المحبة أموالاً عظيمة من الملكة ، والشيخة هي التي أشارت على الملكة ببناء مدرستها (الصاحبة) المذكورة . فبنتها (أي الملكة) ووقفتها على الشيخ ناصح الدين الحنبلي والد الشيخة وعلى أتباعه الحنابلة الذين لهم يومئذ مركز اجتماعي كبير في دمشق . وكان الاحتفال بافتتاح هذه المدرسة يوماً مشهوداً حضره الجمع الغفير من الخاصة

والعامة ، وشهدته الواقفة الملكة (ربيعة خاتون) نفسها من وراء الستر .

ولكن بعد أن توفيت ربيعة خاتون لحق المسكينة الشيخة أمة اللطيف الحنبلية ضرر عظيم من الامراء أرباب النفوذ والطمع فمدوا أبصارهم الى أموالها الكثيرة وحبسوها في القلعةمدة ثلاث سنين واستصفوا أموالها . ثم أفرج عنها وتزوجها الملك الأشرف صاحب حمص . ولكن لا نعلم هل تزوجها الأشرف لعلمها وفضلها ؟ أو لمالها وكنوزها ؟ فانه وجد لها بعد موتها بدمشق جواهر وذخائر نفيسة تقارب ستمائة الف درهم غير الأملاك والأوقاف.

وتوفيت (أمة اللطيف) سنة ٦٥٣ هـ أي بعد وفاة صاحبتها ربيعة خاتون بعشر سنين . ودفنت في مدرستها التي بنتها هي أيضاً في الجانب الغربي من سفح قاسيون تحت جامع الأفرم .

الأميرة ربيعة والشيخة (أمة اللطيف) كلتاهما من الجنس اللطيف . اللاتي لاتخلو أعمالهن من ملاحة وتناسب وكل معنى ظريف :فأنت ترى ان الاميرة شيدت مدرستها في الجانب الشرقي من جبل الصالحية وكذلك الشيخة بنت مدرستها مقابلها في الجانب الغربي . الأميرة سمت مدرستها (الصاحبة) إشارة لصحبتها للشيخة ، والشيخة سمت مدرستها (العالمة) اشارة لعلمها وفضلها الذي بواسطته نالت شرف الصحبة للاميرة ربيعة خاتون .

* * *

طالت زيارتنا لجارنا الملك العادل والوقوف على أطلاله واستطلاع أخباره وآثاره . فلنرجع الى حيث كنا — الى (تحت القلعة) ولنتعرف بقية خبرها .

نعم أيها السادة يجب علينا أن نسرع الى تحت القلعة لا في زمن الملك العادل بل في زمن الصالح ايوب لنرى من مشاهدها مشهداً مؤلماً مثّله الظالمون على مرسحها . فندوّن خبر ذلك المشهد في مذكراتنا التاريخية عن دمشق قبل أن نبرحها إلى فلسطين .

* * *

وقع في دمشق حادث خطير قامت له الناس وقعدت : ذلك أنه قتل أمير من أمراء الصالح أيوب ملك مصر . والصالح أيوب هذا هو حفيد الملك العادل أي ابن ابنه وقد توفي سنة ٦٤٧ هـ .

وقد كثرت الأراجيف بسبب قتل ذلك الأمير وجعل الناس يتهامسون بينهم تهامساً يلمح من خلاله أن للقتل سراً مخيفاً . فكان أحدهم اذا حدث صديقه بما يعلم من سر الحادث استكتمه الخبر وترجى منه أن لاينقله عنه .

ولم يمض على مبدأ الشائعة بضعة أيام حتى انكشف سرها ووضح أمرها . وأخبرنا رب مثوانا (أي صاحب الدار الذي كنا ضيوفاً عليه) أن القاتل مملوك من مماليك الأمير المقتول ، وهو صبي تركي بالغ . وبعد أيام قالوا : ان ولاة الأمور قرروا صلب ذلك الغلام تحت القلعة .

وجعل الناس يتحدثون بخبر المملوك جهاراً بعد أن كانوا يتحدثون به سرا . وأخذ بعضهم يقص على البعض الآخر من أخبار هذه الحادثة وأحوال بطلها ماحملنا على تأخير سفرنا لنرى ماسيكون :

ثم أعلن ولاة الأمور أن تنفيذ القصاص سيكون تحت القلعة يوم الجمعة الواقع في ١٦ من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٦ هجرية .

فلم يعد للناس حديث إلا حديث ذلك المتهم وانتظار اليوم الموعود ، وزادنا رغبة في شهود ذلك اليوم تلك الأوصاف العجيبة التي كانوا يصفون بها المتهم ، فانهم كانوا يصفونه بصفات الأولياء والقديسين وانه من عباد الله الصالحين . الذين جمعوا بين الشجاعة وحسن الأخلاق والدين .

وقالوا عنه : انه كان غزا مدينه عسقلان في فلسطين وحارب الافرنج الصليبيين حواليها وقتل منهم جماعة . مع أنه في سن من العمر لايجرؤ من كان مثله على مثل ما أقدم عليه . وقالوا أيضاً : أنه هاجم يوماً من الأيام أسداً وقتل الأسد ، وقالوا أيضاً . أن مولاه الأمير اشتراه بألوف من الدراهم ، وإنه كانت لهذا المملوك نفس أبية . وقوة شديدة .

ولم ينبلج صباح ذلك اليوم المشؤوم حتى بكر أهالي دمشق وفلاحو القرى التي حواليها الى تحت القلعة وانسابوا نحوها زرافات ووحدانا ، صغاراً وكباراً . نساءً ورجالاً . وقد تأخرنا نحن قليلاً فعانينا مشقة عظيمة حتى أمكننا الوصول الى مكان تنفيذ القصاص ، فاذا الأعواد منصوبة على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب .

وعند الظهر أتت رجال الدرك بالقاتل واذا به من أجمل الصبيان وأحسنهم وجهاً وأطولهم شعراً .

فاخذوا يعلقونه على الأعواد وجعلوا وجهه مقابل الشرق وكان مكشوف الرأس وذؤابة شعره مسترسلة من وراء ظهره .

وقد سلم نفسه للقصاص من دون جزع ولا هلع ، ومد يديه فسمرتا ثم سمرت عضداه ثم رجلاه ، وهو ينظر من دون أن يتأوه أو يتغير وجهه أو يحرك شيئاً من أعضائه ، وانما كان ينظر الى رجليه وجانبيه : تارة يميناً ، وتارة شمالا ، وأحياناً ينظر الى الناس ، وبقي ساكناً صابراً حتى مات . وقد استسقى ماء فلم يسقوه مع أن مياه بردى كانت تنساب تحت قدميه وهو ينظر اليها . ويتحسر على قطرة منها يطفيء بها حرارة جوفه .

فكان الناس يكثرون من الحوقلة واظهار الرحمة والشفقة على هذا الصغير . الذي يعذب هذا العذاب الكبير . وزادهم حسرة وأسفاً عليه مذ رأوا الرياح تلعب بذؤابته المسترسلة على ظهره ، وكانت أحياناً تلقيها على صدره فيجعل الغلام يتناولها بفمه ويعبث بها بشفتيه . يتلهّى بذلك ويتشاغل عن ألمـــه .

وسمعنا الذي بجانبنا يقول : إنه أصبح اليوم ناوياً للصيام وقد صلبوه وهو صائم .

ثم انفض الناس من حوله في منتصف الليل وبقي معلقاً وحوله الحراس الى يوم الاثنين ثم أنزلوه في ضحى ذلك اليوم وقد رأيناه اتفاقاً ونحن

مارون الى المدرسة الحسامية فشاهدناه وقد اسودت أعضاؤه . وتغيرت محاسنه فاكثرنا من الدعاء له والترحم عليه . وما يدرينا أن يكون مات شهيداً وقد قالوا انه انما قتل سيده لأنه كلفه أمراً ينكره العقل والدين . والله يغفر لنا أجمعين .

وبقي الناس طوال هذا الاسبوع يتحدثون بأخبار الفتى : من ذلك أنهم رأوا له منامات صالحة . وأن نوراً غشّاه قبل موته . وان أول يوم صلبه كان يشكو العطش ثم قواه الله وأنزل عليه الصبر وسكن عطشه .

وكنا نجتمع في دار مضيفنا مع من يزورنا من أهل دمشق فنقضي الليل في السمر والحديث عن ذلك المملوك الشهيد .

فأخبرنا أحدهم انه سمعه ثاني يوم صلبه وهو على الاعواد يقول : انني سُقيت البارحة شراباً أذهب عني العطش ، ثم لم يعد يطلب ماء حتى مات . وقال آخر : ان الله عجل عليه بالموت تخفيفاً ، والا فان جماعة كانوا يصلبون ويتأخر موتهم عدة أيام وليال . وقال آخر : إن الناس لاحظوا أيضاً أن الغلام في ثاني يوم صلبه أصابه شبه اختلال بعقله فلم يعد يحس بألم ولا عطش . وكان يتكلم بغير انتظام وكانت تصدر منه ألفاظ دالة على اختلاله وكان قبل ذلك يغلب عليه النعاس ثم ينتبه مذعوراً لشدة الألم ويذكر الله تعالى فتتقطع قلوب الناس حسرة عليه . وقال بعضهم : إن واحداً من الحراس الموكلين به سأله عن حاله ثاني يوم أو ثالث يوم صلبه فكان جوابه : « طيب مع الله » . ولما سمّروه على الأعواد لم يسمعوا منه سوى كلمة واحدة وهي قوله للجلاد حين دق المسمار في عضده فصادف العظم فقال له : (يافتى تجنّب العظم) . قال وبلغني أن الجلاد الذي سمّره توفي في ذلك اليوم او الذي بعده وهذا من عجائب ما اتفق . وأخبروا الغلام قبل أن يموت بوفاة ذلك الجلاد الذي عذبه وآلمه وأن الله جازاه على سوء فعله .

فاجابهم الغلام وهو في غمرات الموت (الجلاد في حِلٍ مما فعل ولا ذنب له

وانما الذنب على من أمره بذلك)[1] وأخبرنا رجل ثقة قال : إنه سمع الغلام وهو مصلوب يترجى الناظرين اليه أن يبتعدوا عنه لانه يريد أن يريق الماء. ففعلوا حتى أراق الماء ، وبالغوا في أمر قوته ، وصلابة جسمه ، حتى قالوا أنه كان يحرك رجليه وهما مسمرتان . فلم يزل يحركهما حتى اتسع الخرقان اللذان فيها المسماران فصار يدير رجليه حول المسمارين ، ولولا شدة تعلق المسامير بالخشب لكان نزعها من مكانها .

وكان يقول (ليَ يومان ماصليت) يقول ذلك كالمتأسف على ما فاته من الصلوات .

وهكذا قضى أهل دمشق أياماً يتناقلون الحديث عن هذا الفتى الشهيد . وكانت أحاديثهم لاتخلو من مبالغة كما هو شأن الناس عند حدوث حادث غريب مثل هذا .

* * *

ثم جاءنا صاحب المنزل الذي كنا فيه فقال لنا إن جماعة من فتيان الشاغور سيجتمعون سراً في هذه الليلة في دار أحدهم ويقيمون الأذكار ويقرأون القرآن عن روح الفتى الشهيد . وسألنا اذا كنا نحب أن نشهد هذه الحفلة السرية .

فقلنا كيف لا ونحن انما جئنا بلدكم لنرى أحوالكم ونخبر عاداتكم .

وبعد أن صلينا العشاء صبرنا قليلاً ثم تسللنا خفية الى حي الشاغور

---

[1] وتذكرنا فتوى هذا المصلوب بالمصلوب الخارجي عروة بن أدية الذي قتله عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان في من قتل من الخوارج سنة ٥٨ ﻫ (راجع تاريخ ابن جرير طبع أوربا المجلد الثاني والقسم الثاني ص ١٨٥ و ١٨٦) فقد روى ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار (جزء ١ ص ٣٣٧) عن أبي اليقظان قال : اخذ عبيد الله بن زياد عروة بن اديه اخا ابي بلال فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب داره فكان عروة يقول لاهله : انظروا هؤلاء الحرّاس للوكلين بي فاحسنوا اليهم فانهم اضيافكم) اه .

ودخلنا دار الميعاد فاذا جمع غفير من فتيان دمشق ومعظمهم من الشاغور والعمارة والعقيبة . وكان يتخللهم بعض المعممين من شبان الشيوخ . أما المسنون فكانوا يحذرون غضب الحكومة عليهم فلم يشهد الحفلة منهم أحد ، ثم بعد أن ختموا الذكر وأتموا قراءة عدة ربعات من القرآن وأهدوا ذلك الى روح الشهيد قام طالب علم ناقم على الظالمين وتلا قصيدة في رثائه وكان ينشدها بصوت حزين وهذه هي :

ومنفرد من فوق أعواد صلبه ... يجود بنفس صانها خوف ربه
تسمرت الأعضاء منه فلم يطق ... سجوداً فأوما للسجود بقلبه
تمكنت الآلام منه مسمّرا ... فمات . وكان الموت أيسر خطبه
يُرى واحداً والناس من حول جذعه ... وعطشان والأنهار تجري بجنبه
فياحسرةً منه على شرب قطرةٍ ... لقد طار ذيّاك الشراب بلبه
وعريان إلا من غلالة حسنه ... ومكشوف شعرٍ كم تباهى بسحبه
تجول رياح الجوّ فيه وتعصف السوافي عليه كل ترب بقربه
وتشرق شمس الأفق من حسن وجهه ... وقد زال ذاك الحسن مذ أشرقت به
لقد بدّلت تلك المحاسن اذ غدا ... أحق بها منها فنادت بحربه
فيالك ممنوعاً من الماء جارياً ... تفتّتت الأكباد من عظم كربه
ويا لك مصلوباً بظلمٍ وقسوة ... تقطعت الأحشاء من قبح صلبه
ويبرد في الليل البهيم فيشتكي ... نهاراً : فواهاً للمقرّ بذنبه
وياعجباً ممن أشار بصلبه ... ألا اعجب وخبّر عن قساوة قلبه
صبيٌّ صغيرٌ فائق الحسن ناسكٌ ... شجاعٌ له الاقدام في يوم حربه
صبورٌ على هذي الشدائد كلها ... إلى أن أتاه الموت قاض بنحبه

* * *